

سورة الأنبياء

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الاول، وهن من تлады^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴾ ﴿ مَا آمَنَتْ قَلْبُهُمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَوْمِنُونَ ﴾ ﴿

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ الآية [القم: ١، ٢].

ثم اخبر تعالى أنهم لا يصفون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾ أى: جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب. رواه البخارى بنحوه^(٢). وقوله: ﴿ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً؛ لانه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾؟ أى: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروا واختلقوه من الكذب: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الاولين والآخرين، الذى لا يستطيع احد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والارض ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرْتَهُ ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾: يعنون كفاية صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ أَنْ يُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آتَيْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ أَهْلَكَهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآسفوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى ردًا على من أنكروا بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي (١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَنْبَشِرْ يَهُودُوتَنَا﴾ [التنابيح: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين اتوهم بشرًا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرًا، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والاختصاص عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أي: قد كانوا بشرًا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رِجَالًا مُسْحُورًا﴾ الآية [الفرقان: ٧، ٨]. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَالِدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم في خلقه مما يأمر به وينهى عنه. وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم به: ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً

(١) يوحى - بضم الياء التحتية وفتح الحاء المهملة، قراءة الجمهور. وهي هكذا بالخطوط وقرأ حفص وحزمة والكسائي: «نوحى».

وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ إِنَّا لَنَرَكُمُوهُمْ وَأَرْجِعُوهُمْ إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَا بُولَئِنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم ، وقال الحسن : دينكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أى : هذه النعمة ، وتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف نسألون﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقوله : ﴿وكنتم فئسماً من قرية كانت ظالمة﴾ : هذه صيغة تكثير ، كما قال : ﴿وكنتم أهلكتنا من القرون من بعد نوح﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى : ﴿لنكأين^(١) من قرية أهلكتنا وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله : ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ أى : أمة أخرى بعدهم ﴿فلما أحسبوا بأننا﴾ أى : يتقنوا أن العذاب واقع بهم ، كما وعدهم نبيهم ﴿إذا هم منها يركضون﴾ أى : يفرون هارين ، ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومسأكنكم﴾ : هذا تهكم بهم قدرأى : قيل لهم قدرأى : لا تركضوا هارين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والعيشة والمسكن الطيبة . قال قتادة : استهزاء بهم ﴿لعلكم تسألون﴾ أى : عما كنتم فيه من اداء شكر النعمة . ﴿قألوا يا بولئنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى : ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم ، هجيراًهم^(٢) حتى حصدهم حصداً وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِنَجْنِبَنَّ﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُنَّوَأَلْتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ ﴿١٤﴾ بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَتَّبِعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أى : بالعدل والقسط ﴿ليجزى الذين أسألوا بما عملوا ويجزي الذين أحسبوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١] ، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً ، كما قال : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُنَّوَأَلْتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ : قال مجاهد : يعنى : من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا ناراً ، ولا موتاً ، ولا بعثاً ، ولا حساباً . وقال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : اللهم : المرأة بلسان أهل اليمن ، وقال عكرمة والسدى : المراد باللهم هاتنا : الولد . وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَدُنَّا لِأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] ، فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل ، من اتخاذ عيسى ، أو العزير ، أو الملائكة ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ [الإسراء: ٤٣]. وقوله : ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال قتادة ، وإبراهيم النخعي : أى : ما كنا فاعلين . وقال مجاهد : كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار .

(١) في المطبوعة والمخطوطة : «وكأين» وهو خطأ .

(٢) أى : عادتهم وشأنهم .

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أى: ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾ أى: أيها القائلون: لله ولد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعنى: الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أى: لا يستكفون عنها، كما قال: ﴿لَنْ يَسْتَكْبِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى: لا يتعبون ولا يملون ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْ أَنَّ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أى: اهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أى: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبداً معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان فى الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ لِهَيْمَا إِلَهَةٌ﴾ أى: فى السماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِذَا لِلنَّعْبِ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الزمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسألُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسألُونَ﴾ أى: هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسألُونَ﴾ أى: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا يَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [الزمنون: ٨٨].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِىَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى: دليلكم على ماتقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِىَ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِى﴾ يعنى: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىَ (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾،

(١) هى قرآنة الجمهور كما سبقت الإشارة إليه .

كما قال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاعُونَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يبرهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ربع

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أى: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، فى منازل عالية ومقامات سامية، وهم له فى غاية الطاعة قولاً وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَفْعَلُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَىٰ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهيبته ﴿مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] .

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوْسًا أَنْ نَمِידَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى منهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الاشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فامطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء. وعن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا؟﴾ . قال: اذهب

إلى ذلك الشيخ فأسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى في القرآن علماً، صدق، هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى في القرآن علماً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ أي: أصل كل الأحياء منه. روى الإمام أحمد عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يارسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقوت عيني، فأنبئتني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئتني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام». تفرد به أحمد^(١)، وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَواسي﴾ أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها؛ لتلائيم بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها؛ لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربيع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لتلائيم بهم. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِيلًا﴾ أي: ثغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَيْنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَقْلَمَ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس»^(٢) أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، على ما تعهده العرب «محمولاً» أي: عالياً محروساً أن ينال. وقال مجاهد: مرفوعاً. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿وَكَايِنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زين به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليالها، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله، في يوم وليلة تفسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

ثم قال منها عن بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر،

(١) المسند (٧٩١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) البخاري (٨)، ومسلم (١٩/١٦).

وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، أى: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المنزل فى الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المنزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمنزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ إِسْجَابٌ وَجَمَلُ اللَّيْلِ سَكَنٌ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حِسَابَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمْ

بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ أى: فى الدنيا بل ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ . وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضرة، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾. وقوله: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ أى: يا محمد ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾! أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وقوله: ﴿وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى: نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال ابن عباس: ﴿وَنَبَلُّوكُمْ﴾، يقول: نبتليكم ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بالشدّة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال، وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ الْذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِذَا هُمْ رَأَوْا آيَاتِ الْذِينَ كَفَرُوا﴾

﴿يَذُكِّرُ الرَّحْمَنُ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ فَأُورِيكُمْ مَا يَنْبَغِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لنيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِ الْذِينَ كَفَرُوا﴾، أى: كفار قريش كآبى جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِذَا هُمْ رَأَوْا﴾ أى: يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذُكِّرُ الْهَتِكُمْ﴾، يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَذُكِّرُ الرَّحْمَنُ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِذَا هُمْ رَأَوْا آيَاتِ الْذِينَ كَفَرُوا﴾. إن كاد ليصلياً عن ألبتة لولا أن صيرتاً عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أصل سبيلاً. [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١]

أى: فى الأمور. والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾؛ لأنه تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أى: نعى وحكمى واقتدارى على من عصانى ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ لَوْ يَعْلَمُ الْذِينَ كَفَرُوا جَإِن لَّا يَكْفُرُوا

عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعتاداً واستعداداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا غَنَ ظُهُورِهِمْ﴾ أى: لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الاعراف: ٤١]، وقال فى هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا غَنَ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَفْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أى: تأتيتهم النار بغتة، أى: فجأة ﴿فَنَجَّهْتَهُمْ﴾ أى: تذرهم فيسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى: ليس لهم حيلة فى ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أى: من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الانعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلايته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ؟﴾ أى: بدل الرحمن معنى غيره .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أى: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يمرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ، أى: الهم آلهة تمنعهم وتكلوهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: هذه الآلهة التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: أى: يجارون، وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: يمنعون .

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿وَلِإِنْ مَسَّهِنَّ نَفْخَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَاسٍ حِشْبِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا فى الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شىء .

ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الآخسرون الأردلون.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿رَلَيْنَ مِنْهُنَّ نَفْحَةً مِنْ عَذَابٍ رَبِّكَ لِيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين انفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي جَعَلْتُ لَكُمْ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خضفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» (١). وروى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟ قال: فيهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فتخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا ينقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم». ورواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب (٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرب بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾. قال قتادة: التوراة، حلالها

(١) البخارى (٧٥٦٣) ومسلم (٣١/٢٦٩٤).

(٢) المسند (٦٩٩٤) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والتزمى (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠).

قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمُ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٥٧﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أى: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين .

وقوله: ﴿فَجَلَّوْهُمُ جَدَاذًا﴾ أى: حطاماً، كسرهما كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ معنى: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَهٌ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَنْ قَلَّ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ قَلَّ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا قَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا قَتَى﴾ أى: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا قَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى: على رؤوس الاشهاد فى الملا الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟.

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا، معنى: الذى تركه لم يكسره ﴿فَأَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد. وفى الصحيحين عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: «وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هى أختى. قال: فاذهب فأرسل بها إلى، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبنى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله، وأنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى. فلما أن دخلت عليه فرأها أموى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه، فقال: إنك لم تأتى بإنسان، وإنما أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمنى هاجر» قال محمد بن سيرين: وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابنى ماء السماء (١).

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَيَّ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا

(١) البخارى (٥٠٨٤) ومسلم (١٥٤/٢٣٧١) عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة .

هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٥﴾ أَلَمْ يَكُومُوا لَهَا مَهْمَلَةً لَا يَخَافُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فارجعوا إلى أنفسكم﴾ أي: باللمامة في عدم احترامهم وحراستهم لألهتهم، فقالوا: ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثم تكسوا على رؤوسهم﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء؛ ولهذا قالوا له: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وانت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أصبون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿ألم لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تظنون﴾ أي: أفلا تدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأتاهم عليهم الحجة، والزهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولذلك حجنا آتيها إبراهيم على قومه﴾ الآية [الانعام: ٨٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٨﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٩﴾

لما دحضت حججهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ فلما ألقوه قال: ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾، كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١). قال الله: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ عن علي بن أبي طالب: قال: لا تضريه. وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وسلاماً﴾ لأذى إبراهيم بردها. وقوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

﴿وَجَعَلْنَاهُ لوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يهتدون ﴿٧٢﴾ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلوطاً ءآيأناه حكماً وعلماً وجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مَن الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال ابن بن كعب وأبو العالية .

وقوله: ﴿ووهبنا له إسحاقاً ويعقوباً نافلة﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية، وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عتيبة: النافلة ولد الولد، يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق وبن

ورآه إسحاق يعقوب ﴿هود: ٧١﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة. ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: الجميع أهل خير وصلاح ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ أى: يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط، كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فاهلكهم الله ودمر عليهم، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغَيْبَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَآغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [الفر: ١٠] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَمْضُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَجْرًا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه.

وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ أى: ونجينا، وخلصناه منتصراً ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَآغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: اهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ دعا عليهم نبيهم.

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٢٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَا آدَمَ حَكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَسُلَيْمَانَ إِذْ رَجَعَ عَاصِفًا تَجَرَّى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرَكُنَّ فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٣١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُّونَ لَهُمُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قال ابن عباس: النَّفْسُ: الرعى. وقال شريح، والزهرى، وقتادة: النَّفْسُ بالليل. زاد قتادة: والهمل بالهار. وقال ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أثبتت عناقيده، فافسده. قال: ففضى داود بالغم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى

يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ فَهَمَّتَاهَا سَلِيمَانٌ ﴾ .

وقوله: ﴿ فَهَمَّتَاهَا سَلِيمَانٌ وَكَلَّأَتِنَا حَكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قال حميد: إن إياس بن معاوية لما استقصى أناه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ فأنسى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - معنى: الحسن -: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترطون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال: ﴿ وَلَا تَخْشَوُا بَأْسَآئِي ثَمَّ قَلِيلًا ﴾ [المائدة: ٤٤] .

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١)، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم. وفي السنن: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو في النار»^(٢). وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاها سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابناهما، لا تشقه، فقضى به للصغرى». وأخرجه البخارى ومسلم^(٣).

وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترتَّم به تقف الطير في الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تاروياً؛ ولهذا لما مرَّ النبي ﷺ على موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا مزاراً من مزامير آل داود». قال: يارسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحمير^(٤).

وقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيَحْفَظَكُمْ مِنْ أَسْأَلِكُمْ ﴾: يعنى صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاً. كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَهُ الْعَدِيدُ . أَن أَعْمَلُ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرُ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبا: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتدَّ الحلقة؛ ولهذا قال: ﴿ لِيَحْفَظَكُمْ مِنْ أَسْأَلِكُمْ ﴾: يعنى: فى القتال، ﴿ فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾: أى: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

(١) البخارى (٧٣٥٢) .

(٢) أبو داود (٣٥٧٣) وابن ماجه (٢٣١٥) ، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٨٢٦٣) ، والبخارى (٦٧٦٩) ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠) .

(٤) البخارى (٥٠٤٨) .

وقوله : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُوَسْوِسُ لَهُ﴾ أي : فى الماء يستخرجون اللآلىء وغير ذلك . ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي : غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بِنَاءٍ وَعُجُوفٍ﴾ . وآخرين مقرئين فى الأصفاد [ص: ٣٧ ، ٣٨] . وقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي : يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو مُحَكَّم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَخْرَجْنَا مَقْرُونَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ .

ربيع

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِندَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿﴾

يذكر تعالى عن أيوب ، عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء ، فى ماله وولديه وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده يقال : بالجذام فى مائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبى ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل »^(١) وفى الحديث الآخر : « يتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »^(٢) . وقد كان نبى الله أيوب ، عليه السلام ، غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك . عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : قال : « لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جرأداً من ذهب ، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه » . قال : « فقيل له : يا أيوب ، أما تشيع ؟ قال : يا رب ، ومن يشيع من رحمتك » . أصله فى الصحيحين^(٣) .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم . وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة . وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجمة ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب ، وصح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب . وقوله : ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَعِندَنَا﴾ أي : فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي : وجعلناه فى ذلك قدوة ، لتلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به فى الصبر على مقدرات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة فى ذلك .

﴿وَأَسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿﴾

(٢٠١) المسند (١٤٨١) وقال أحمد شاكر : «إسناده صحيح» . والترمذى (٢٣٩٨) وقال : «حديث حسن صحيح» .

(٣) الحاكم فى المستدرک (٥٨٢/٢) ، وقال : «حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه» . والبخارى (٣٣٩١) ، ولم

أقف عليه فى مسلم ورواه أحمد فى المسند (٧٣٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح وذكره ابن كثير ...

ثم ذكر أن البخارى رواه من هذا الوجه » .

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وقال ابن جرير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكُفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، قَسَمَى: ذا الكفل. وكذا روى ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد أيضاً.

﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَيْرِ وَكَذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٨﴾

هذه القصة مذكورة ها هنا وفي سورة «الصفات» وفي سورة «ن» وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «ننوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الامهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثقت الغنم وسُخِّلَتْهَا، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَبَفَّعْنَا بِهَا آيَاتِنَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْغَزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُصَّاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فَلَجَّجَتْ بهم، وخافوا أن يغرقوا. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثملقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً فالتقم يونس حينلقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تاكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: ﴿وَذَا التُّونِ﴾ يعنى: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نضيق عليه في بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العوفى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدر وقدر بمعنى واحد ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقِ الْمَاءَ عَلَىٰ أَنْفِقْدَ قَدِرٍ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قدر. وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء،

فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الانبياء، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد، فسلمت عليه، فعلا عينيه مني ثم لم يردد على السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفا في المسجد، فسلمت عليه، فعلا عينيه مني، ثم لم يردد على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فانا أتيتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نعم، دعوة ذي النون، إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له». ورواه الترمذی، والنسائي (١).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿١٢٨﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لِمَ زَوْجَهُ ﴿١٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالنَّخْلِ وَيَتَمَنَّىٰ رِجَابًا وَأَرَبَابًا ﴿١٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبيا. وقد تقدمت القصة مبسوطه في أول سورة «مريم» وفي سورة «آل عمران» أيضا، وما هنا أحصر منهما ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة. قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لِمَ زَوْجَهُ﴾ أي: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: كانت عاقرا لا تلد، فولدت.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالنَّخْلِ﴾ أي: في عمل القربيات وفعل الطاعات ﴿وَيَتَمَنَّىٰ رِجَابًا وَرَهْبًا﴾ قال الثوري: ﴿رِجَابًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهْبًا﴾ مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا حَاشِينَ﴾ قال ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبدا. وقال الحسن، وقادة، والضحاك: ﴿حَاشِينَ﴾ أي: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتشتروا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرغبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أتى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالنَّخْلِ وَيَتَمَنَّىٰ رِجَابًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا حَاشِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما

السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة «آل عمران»، وفي سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم، عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ الْإِنسَانِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَكْفُرْ بِإِسْمِ اللَّهِ الَّيَّ كُفِّرُوا﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري في هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما ياتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ستكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾: خير إن، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضعت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: نصب على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وإن هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: نحن معشر الانبياء أولاد علاتٍ ديننا واحد^(١)، يعني: إن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا نَكْمَ شُرْعَةً وَمِنهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّ الْإِنسَانِ رَاجِعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مصدق، وعمله عملاً صالحاً ﴿فَلَا يَكْفُرْ بِإِسْمِهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٢٠] أي: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: يكتب جميع عمله، فلا يصيب عليه منه شيء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيَتَوْلِينَا قَدَّ كُنَّا فِي عَفْوَهِمْ مِنْ هَذَا بَلِّ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّعَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد

يافت أبي الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين وقال: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلَةٌ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتُرْكِنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والْحَدَبُ: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كان السامع مشاهد لذلك، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

روى الإمام أحمد: عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» فيخرجون [على الناس] كما قال الله عز وجل: ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يساسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ها هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد فى حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقى أهل السماء. قال: «ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَصِبَةً دَمَا؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كَنَفَ الجراد الذى يخرج فى أعناقه، فيصبحون موتى لا يُسْمَعُ لهم حِسٌّ، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرِى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فيتزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسْرَحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كاحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط. ورواه ابن ماجه^(١).

وروى الإمام أحمد أيضا عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الكلابى قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فَحَقَّقَ فِيهِ وَرَقَّ، حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فانا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم: إنه شاب جَمْدٌ قَطَطٌ عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعات يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا». قلنا: يا رسول الله، ما لبثه فى الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذى هو كسنة، أتكنينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، فما إسرعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحقى فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذُرًّا، وأمدته خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحقى فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتبعه أموالهم، فيصبحون مُمَحْلِينَ، ليس لهم من أموالهم. ويمر

(١) المسند (٣ / ٧٧) وابن ماجه (٤٠٧٩)، وقال الألبانى: «حسن صحيح»، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة أو المخطوطة، واثبتناه من المسند.

بالحرية يقول لها: أخرجي كنوزك، فتبعه كنوزها كيما سيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعو فيقبل إليه يتهلل وجهه. فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقى دمشق، بين مهرودتين واضعا يده على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُد الشرقى».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادى إلى الطور، فبيث الله عز وجل ياجوج وماجوج، وهم كما قال الله: ﴿مَنْ كُلِّ حَذَبٍ يَسْلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نغفاً فى رقابهم، فيصبحون قرسى، كموت نفس واحدة. فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون فى الأرض بيتاً إلا قد ملاء رءمهم وننتهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كاعتاق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر: فحدثنى عطاء بن يزيد السكسكى، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمهليل. قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وابن المهليل؟^(١)، قال: مطلع الشمس. قال: «ويرسل الله مطراً لا يكُن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزرقعة، ويقال للأرض: أنتى ثمرتك، وردى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانه ويستظلون بقحفها، ويبارك فى الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى القتام من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت». قال: «فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة تحت أباطهم، فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهاجرون تهاج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، ورواه أهل السنن. وقال الترمذى: حسن صحيح^(٢).

وقد تقدم فى سورة الاعراف من رواية الإمام أحمد، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيان، فإذا رأنى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رأنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فئند ذلك يخرج ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلى يشكونهم، فادعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نثن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. فقيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدرى أهلها متى تمجؤهم بولدها ليلا أو نهارا». ورواه ابن جرير^(٣).

(١) فى المطبوعة فى الموضعين: «المهليل» بالياء الشاة التحتية بعد الهاء، وهو خطأ، والصحيح ما أثبتناه من المسند والمخطوطة، بالياء الموحدة. ، وانظر النهاية فى غريب الحديث (٥ / ٢٤١).

(٢) المسند (٤ / ١٨١) ومسلم (٢٩٣٧ / ١١٠) وأبو داود (٤٣٢١) والترمذى (٢٢٤٠).

(٣) تفسير الطبرى (١٧ / ٧٢).

والاحاديث في هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجَّنَ هَذَا الْبَيْتَ، وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ». انفرد بإخراجه البخاري^(١).

وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة، إذا حصلت هذه الأحوال والزلازل والبلابل، أرفت الساعة واقترت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القم: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَتَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَا وَيْلَتَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا يفهمهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُواهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجَ الْأَكْبَرُ وَنُنْفِئُهُمُ الْمَلَتِيكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]. وقال مجاهد، وعكرمة، وقناة: حطبها. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُواهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ﴾ كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَشَهَقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعادة من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. روى ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال - وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم - أو قال: سعد منهم - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجز

ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيهَا﴾. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزيز والمسيح، كما قال ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، فيقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج. وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت. وقيل: المراد بالفرع الأكبر: النسخة في الصور. وقيل: حين يُدْبِح الموت بين الجنة والنار. ﴿وَتَطْفَأُهَا الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمَكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمَكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد روى البخارى عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِهِ». انفرد به من هذا الوجه البخارى (١). وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي. وقال ابن جرير: لا يُعرف في الصحابة أحد اسمه السجل، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رحمه الله في ذلك، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إِنَّكُمْ مُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِفَاةَ عِرَاءٍ غُرًّا كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين (٢).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ بَرْنُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿إِنَّا فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الاعراف: ١٢٨].

وقال: ﴿إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبيرة: الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن وقال ابن عباس وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذکر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذكر، والذکر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

وقال ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض: أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وعن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يورثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ قال أرض الجنة. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿إِن فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً؛ لِنَفْعَةٍ وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ بَصُلُونَهَا وَنِيسَ الْقَرَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَرَحْمَةً لِّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُبَادُونَ مِمَّنْ كَانُوا بِعِيْدٍ﴾ [نصلت: ٤٤]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». انفراد بإخراجه مسلم^(١).

فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتِبَ له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي بما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لِّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك، مسلمون متقادون له ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ

سواء ﴿ آى : أعلمتكم أنى حرب لكم، كما أنكم حرب لى، برىء منكم كما أنكم برآء منى، كقوله: ﴿وإن كذبوك فقل لى عطفى ولکم عملکم أنتم بریئون مما عمل وأنا بریء مما تعملون﴾ [یونس: ٤١] وقال: ﴿وإنما تخافن من قوم خیانة فأنبذ إلیهم على سواء﴾ [الأنفال: ٥٨] آى : لیکن علمک وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ها هنا ﴿إن تولوا فقل أذنتکم على سواء﴾ آى : أعلمتکم ببراءتى منكم، وبراءتکم منى؛ لعلمى بذلك.

وقوله: ﴿وإن أدرى أقرب أم بعدى ما توعدون﴾ آى: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لى بقره ولا بعده ﴿إنه یعلم الجهر من القول وعلّم ما تكتمون﴾ آى: إن الله یعلم الغیب جمیعہ، وعلّم ما ینظره العباد وما یسرون، یعلم الظواهر والضمائر، وعلّم السر وأخفى، وعلّم ما العباد عاملون فى إظهارهم وإسرارهم، وسیجزیهم على ذلك، على القلیل والجلیل. وقوله: ﴿وإن أدرى لعلہ فتنه لكم ومتاع إلى حین﴾ آى: وما أدرى لعل هذا فتنه لكم ومتاع إلى حین، قال ابن جریر: لعل تأخیر ذلك عنكم فتنه لكم، ومتاع إلى أجل مسمى. وحکاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿قال رب احکم بالحق﴾ آى: افصل بیننا و بین قومنا المکذبین بالحق، قال قتادة: كان الأنبياء، علیهم السلام، یقولون: ﴿ربنا افصح بیننا و بین قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ [الاعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن یقول ذلك ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ آى: على ما یقولون ویفترون من الکذب، ویتنوعون فى مقامات الکذب والإفک، والله المستعان علیکم فى ذلك.